مَعْنَىٰ ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾

قَالَ أَهْلُ المَعَانِي: الخُسْر [كالعُسْرِ واليُسْرِ]: هَلَاكُ رَأْسِ المَال أَوْ نَقْصُهُ.

أَيْ: فِي خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ وَنُقْصَانٍ وَسُوءِ حَالٍ وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ حَتَّىٰ يَمُوتَ.

وَخَسَارَتُهُ رَأْسُ مَالِهِ الَّذِي هُوَ نُورُ الفِطْرَةِ وَالهِدَايَةِ الأَصْلِيَّةِ؛ بِإِيثَارِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّذَّاتِ الفَانِيَةِ وَالِاحْتِجَابِ بِهَا وَبِالدَّهْرِ، وَإِضَاعَةِ البَاقِي فِي الفَانِي ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وَالمُرَادُ بِهِ مَا يَنْغَمِسُ فِيهِ الإِنْسَانُ مِنَ الآفَاتِ المُهْلِكَةِ.

فَـ(الخُسْر) وَ(الخُسْرَان) مَصْدَرَانِ؛ وَالمَعْنَىٰ: النُّقْصَان وَذَهَاب رَأْسِ المَال، كَمَا قِيلَ: الكُفْر فِي الكُفْرَانِ، وَ(خُسْرَان الإِنْسَانِ) هُوَ نَفْسُهُ وَعُمْرُهُ.

وَقِيلَ: أَيْ: لَفِي غُبْنٍ.

قَالَ الْأَخْفَشُ: لَفِي خُسْرٍ فِي هَلَكَةٍ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: عُقُوبَةٌ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (الطَّلَاق/ ٩).

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَفِي شَرٍّ.

وَالمَعْنَىٰ مُتَقَارِبٌ.

فَقَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾؛ فِيهِ تَفْسِيرَانِ:

وَذَلِكَ لِأَنَّا إِذَا حَمَلْنَا (الْإِنْسَانَ) عَلَىٰ الْجِنْسِ كَانَ مَعْنَىٰ (الخُسْرِ) هَلَاكَ نَفْسِهِ وَعُمْرِهِ، إِلَّا المُؤْمِنَ العَامِلَ فَإِنَّهُ مَا هَلَكَ عُمُرُهُ وَمَالُهُ، لِأَنَّهُ اكْتَسَبَ بِهِمَا سَعَادَةً أَبَدِيَّةً.

وَإِنْ حَمَلْنَا لَفْظَ (الْإِنْسَانِ) عَلَى الْكَافِرِ؛ كَانَ الْمُرَادُ كَوْنَهُ فِي الضَّلَالَةِ وَالْكُفْرِ إِلَّا مَنْ آمَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَحِينَئِذٍ يَتَخَلَّصُ مِنْ ذَلِكَ الْخَسَارِ إِلَى الرِّبْحِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا فِي خُسْرَانٍ مِنْ تِجَارَتِهِمْ إِلَّا الصَّالِحِينَ وَحْدَهُمْ، لِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا، فَرَبِحُوا وَسَعِدُوا، وَمَنْ عَدَاهُمْ تَجَرُوا خِلَافَ تِجَارَتِهِمْ، فَوَقَعُوا فِي الْخَسَارَةِ وَالشَّقَاوَةِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (لَفِي الْخُسْرِ)، لِأَنَّ التَّنْكِيرَ يُفِيدُ التَّهْوِيلَ تَارَةً وَالتَّحْقِيرَ أُخْرَى، فَإِنْ حَمَلْنَا عَلَى الْأَوَّلِ -وَهُوَ الْأَظْهَرُ-؛ كَانَ الْمَعْنَى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ عَظِيمٍ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا اللهُ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ بِعِظَمِ مَنْ فِي حَقِّهِ الذَّنْبُ، أَوْ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي مُقَابَلَةِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ، وَكِلَا الْوَجْهَيْنِ حَاصِلَانِ فِي ذَنْبِ الْعَبْدِ فِي حَقِّ رَبِّهِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ ذَلِكَ الذَّنْبُ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ.

وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الثَّانِي -أَيْ: عَلَى التَّحْقِيرِ-؛ فَيَكُونُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خُسْرِ الشَّيَاطِينِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ خُسْرَانَ الْإِنْسَانِ دُونَ خُسْرَانِ الشَّيْطَانِ، وَفِيهِ بِشَارَةٌ أَنَّ فِي خَلْقِي مَنْ هُوَ أَعْصَى مِنْكَ، **وَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ**.

فَلَمْ يُبَيِّنْ -هُنَا- نَوْعَ الْخُسْرَانِ فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ بَلْ أَطْلَقَ لِيَعُمَّ، وَجَاءَ بِحَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ لِيُشْعِرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَغْرِقٌ فِي الْخُسْرَانِ وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

وَأُفْرِدَ (الْخُسْرِ) مَعَ كَثْرَةِ أَنْوَاعِهِ؛ لِأَنَّ (الْخُسْرَ الْحَقِيقِيَّ) هُوَ حِرْمَانٌ عَنْ خِدْمَةِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَكَالْعَدَمِ.

وَمَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ فَهُوَ فِي غَايَةِ الْخُسْرَانِ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ اشْتَرَى الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا فَرَبِحَ وَسَعِدَ.

وَلَكِنْ؛ أَيُّ خُسْرَانٍ أَعْظَمُ مِمَّنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؟

وَفِيهِ مُبَالَغَاتٌ، وَدُخُولُ «إِنَّ»، وَ«اللَّام»، وَإِحَاطَةُ الخُسْرِ بِهِ، أَيْ: هُوَ فِي طَرِيقٍ خُسْرٍ وَسَبَبٍ خُسْرٍ. فَقَوْلُهُ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ كَالمَغْمُورِ فِي الْخُسْرَانِ[1]، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَكَلِمَةُ (إِنَّ)، فَإِنَّهَا لِلتَّأْكِيدِ، وَحَرْفُ (اللَّام) فِي ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾.

فَـ(التَّنْكِيرُ) -عَلَى الرَّاجِحِ هُنَا- لِلتَّفْخِيمِ؛ أَيْ: لَفِي خُسْرَانٍ عَظِيمٍ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إِلَّا فِي مَتَاجِرِهِمْ وَصَرْفِ أَعْمَارِهِمْ فِي مَبَاغِيهِمْ.

فَهُمْ فِي نَقْصٍ بِحَسَبِ مَسَاعِيهِمْ فِي أَهْوَائِهِمْ وَصَرْفِ أَعْصَارِهِمْ فِي أَغْرَاضِهِمْ لِمَا لَهُمْ بِالطَّبْعِ مِنَ المَيْلِ إِلَى الحَاضِرِ وَالإِعْرَاضِ عَنِ الغَائِبِ وَالاِغْتِرَارِ بِالفَانِي أَعَمُّ مِنَ أَنْ يَكُونَ (الخُسْر) قَلِيلًا أَوْ جَلِيلًا بِحَسَبِ تَنَوُّعِ النَّاسِ إِلَى أَكْيَاسٍ وَأَرْجَاسٍ، فَمَنْ كَانَ كَافِرًا كَانَ فِي كُفْرَانٍ، وَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا عَاصِيًا كَانَ فِي خُسْرَانٍ إِنْ كَانَ بَالِغًا فِي المَعْصِيَةِ وَإِلَّا كَانَ فِي مُطْلَقِ الخُسْرِ، وَهُوَ مَدْلُولُ المَصْدَرِ المُجَرَّدِ.

وَذَلِكَ بَيِّنٌ غَايَةَ البَيَانِ فِي الكَافِرِ لِأَنَّهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، وَذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ، وَأَمَّا المُؤْمِنُ -وَإِنْ كَانَ فِي خُسْرِ دُنْيَاهُ فِي هِرَمِهِ وَمَا يُقَاسِيهِ مِنْ شَقَاءِ هَذِهِ الدَّارِ الدُّنْيَا- فَذَلِكَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ فِي جَنْبِ فَلَاحِهِ فِي الآخِرَةِ وَرِبْحِهِ الَّذِي لَا يَفْنَى، وَمَنْ كَانَ فِي مُدَّةِ عُمْرِهِ فِي التَّوَاصِي بِالحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالعَمَلِ بِحَسَبِ الوَصَاةِ فَلَا خُسْرَ مَعَهُ، وَقَدْ جُمِعَ لَهُ الخَيْرُ كُلُّهُ.

---

(١) فَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ (إِنَّكَ خَاسِرٌ)؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البَقَرَة/ ٣٤) وَلَمْ يَقُلْ (وَكَانَ كَافِرًا)، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البَقَرَة/ ٣٥)، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (المَائِدَة/٣١) وَلَمْ يَقُلْ: (فَأَصْبَحَ نَادِمًا)، وَمِثْلُ قَوْلِ المُسْلِمِ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ! اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ) وَلَمْ يَقُلْ: (اللَّهُمَّ! اجْعَلْنِي تَوَّابًا وَاجْعَلْنِي مُتَطَهِّرًا)، وَهَكَذَا.

فَـ(الخَسَارُ) مَرَاتِبُ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ:

- قَدْ يَكُون خَسَارًا مُطْلَقًا؛ كَحَالِ مَنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَفَاتَهُ النَّعِيمُ، وَاسْتَحَقَّ الجَحِيمَ.

- وَقَدْ يَكُونُ خَاسِرًا مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ دُونَ بَعْضٍ، فَكُلُّ مَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الطَّاعَاتِ أَوْ حَتَّىٰ الأَوْقَاتِ؛ يَنْدَمُ عَلَىٰ فَوَاتِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَسَيَأْتِي الكَلَامُ حَوْلَ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا عَمَّمَ الخَسَارَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ؛ **إِلَّا مَنِ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:**

* **الإِيمَان** بِمَا أَمَرَ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَلَا يَكُونُ (الإِيمَانُ) بِدُونِ (العِلْمِ)، فَهُوَ فَرْعٌ عَنْهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ.

* وَ**العَمَل الصَّالِح**، وَهَذَا شَامِلٌ لأَفْعَالِ الخَيْرِ كُلِّهَا؛ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، المُتَعَلِّقَةِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ؛ الوَاجِبَةِ وَالمُسْتَحَبَّةِ.

* وَ**التَّوَاصِي بِالحَقِّ**؛ الَّذِي هُوَ الإِيمَانُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، أَيْ: يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِذَلِكَ، وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ، وَيُرَغِّبُهُ فِيهِ.

* وَ**التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ**: **عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللهِ المُؤْلِمَةِ (البَلَاء)**.

فَبِالأَمْرَيْنِ الأَوَّلَيْنِ يُكَمِّلُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَبِالأَمْرَيْنِ الأَخِيرَيْنِ يُكَمِّلُ غَيْرَهُ.

وَبِتَكْمِيلِ الأُمُورِ الأَرْبَعَةِ؛ يَكُونُ الإِنْسَانُ قَدْ سَلِمَ مِنَ الخَسَارِ، وَفَازَ بِالرِّبْحِ العَظِيمِ.

وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ: **العِلْمِ بِالاِحْتِيَاجِ إِلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ** لِبَيَانِ المَرْضِيِّ للهِ مِنَ الاِعْتِقَادَاتِ وَالعِبَادَاتِ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا وَإِدَامَةً لِذَلِكَ؛ لِيَكُونَ فَاعِلُهُ مِنْ قَبْضَةِ اليَمِينِ وَتَارِكُهُ مِنْ أَصْحَابِ الشِّمَالِ.

وَقَالَ **بَعْضُهُمْ** فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ: إِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا عُمِّرَ فِي الدُّنْيَا وَهَرِمَ لَفِي نَقْصٍ وَضَعْفٍ وَتَرَاجُعٍ؛ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ يُكْتَبُ لَهُمْ أُجُورُ أَعْمَالِهِم الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَهَا فِي شَبَابِهِمْ وَصِحَّتِهِمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ (التين/ ٤، ٥).

وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُ عَنْ تَضْيِيعِ عُمُرِهِ، لأَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِالإِنْسَانِ؛ فَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَالْخُسْرُ ظَاهِرٌ، وَكَذَلِكَ إِنْ مَرَّتْ فِي مُبَاحٍ، وَإِنْ مَرَّتْ فِي طَاعَةٍ فَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ أَكْمَل، أَيْ: مِنَ الْخُشُوعِ، وَالإِخْلَاصِ، وَتَرْكِ الأَعْلَىٰ، وَالإِتْيَانِ بِالأَدْنَىٰ نَوْعُ خُسْرَانٍ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: قَوْلُهُ: ﴿**لَفِي خُسْرٍ**﴾ يُفِيدُ التَّوْحِيدَ، مَعَ أَنَّهُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ (الْخُسْرِ)

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْخُسْرَ الْحَقِيقِيَّ هُوَ حِرْمَانُهُ عَنْ خِدْمَةِ رَبِّهِ، وَأَمَّا الْبَوَاقِي وَهُوَ الْحِرْمَانُ عَنِ الْجَنَّةِ، وَالوُقُوعُ فِي النَّارِ، فَبِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَوَّل كَالْعَدَمِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ فِي وُجُودِهِ فَوَائِدُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذَّارِيَات/ ٥٦) أَيْ لَـمَّا كَانَ هَذَا الْمَقْصُودُ أَجَلَّ الْمَقَاصِدِ كَانَ سَائِرُ الْمَقَاصِدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَالْعَدَمِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَرَنَ بِهَذِهِ الآيَةِ قَرَائِنَ تَدُلُّ عَلَىٰ مُبَالَغَتِهِ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ كَوْنِ الإِنْسَانِ فِي خُسْرٍ:

أَحَدُهَا: كَلِمَةُ (**إِنَّ**)؛ فَإِنَّهَا لِلتَّأْكِيدِ.

وَثَانِيهَا: حَرْفُ (**اللَّام**) فِي ﴿**لَفِي خُسْرٍ**﴾.

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: ﴿**لَفِي خُسْرٍ**﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ كَالْمَغْمُورِ فِي الْخُسْرَانِ، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وَهَاهُنَا احْتِمَالَانِ:

الْأَوَّلُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أَيْ: فِي طَرِيقِ الْخُسْرِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ (البقرة/ ١٧٤)، وَكَقَوْلِهِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ (النساء/ ١٠)، وَذَلِكَ لَمَّا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ النَّارَ.

الِاحْتِمَالُ الثَّانِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُّ عَنْ خُسْرٍ، لِأَنَّ الْخُسْرَ هُوَ تَضْيِيعُ رَأْسِ الْمَالِ، وَرَأْسُ مَالِهِ هُوَ عُمُرُهُ، وَهُوَ قَلَّمَا يَنْفَكُّ عَنْ تَضْيِيعِ عُمُرِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ سَاعَةٍ تَمُرُّ بِالْإِنْسَانِ فَإِنْ كَانَتْ مَصْرُوفَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ فَلَا شَكَّ فِي الْخُسْرَانِ، وَإِنْ كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالْمُبَاحَاتِ فَالْخُسْرَانُ أَيْضًا حَاصِلٌ، لِأَنَّهُ كَمَا ذَهَبَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ أَثَرٌ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ عَمَلًا يَبْقَى أَثَرُهُ دَائِمًا، وَإِنْ كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالطَّاعَاتِ فَلَا طَاعَةَ إِلَّا وَيُمْكِنُ الْإِتْيَانُ بِهَا، أَوْ بِغَيْرِهَا عَلَى وَجْهٍ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ مَرَاتِبَ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ لله غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، فَإِنَّ مَرَاتِبَ جَلَالِ الله وَقَهْرِهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، وَكُلَّمَا كَانَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِهَا أَكْثَرَ كَانَ خَوْفُهُ مِنْهُ تَعَالَى أَكْثَرَ، فَكَانَ تَعْظِيمُهُ عِنْدَ الْإِتْيَانِ بِالطَّاعَاتِ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ، وَتَرْكُ الْأَعْلَى وَالِاقْتِصَارُ بِالْأَدْنَى نَوْعُ خُسْرَانٍ، فَثَبَتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْفَكُّ الْبَتَّةَ عَنْ نَوْعِ خُسْرَانٍ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ فِي الْخُسْرَانِ وَالْخَيْبَةِ، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ سَعَادَةَ الْإِنْسَانِ فِي حُبِّ الْآخِرَةِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ الْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْآخِرَةِ خَفِيَّةٌ، وَالْأَسْبَابَ الدَّاعِيَةَ إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا ظَاهِرُهَا؛ وَهِيَ الْحَوَاسُّ الْخَمْسُ وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ صَارَ أَكْثَرُ الْخَلْقِ مُشْتَغِلِينَ بِحُبِّ الدُّنْيَا مُسْتَغْرِقِينَ فِي طَلَبِهَا، فَكَانُوا فِي الْخُسْرَانِ وَالْبَوَارِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ التِّينِ (٤، ٥): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾، فَهُنَاكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِابْتِدَاءَ مِنَ الْكَمَالِ وَالِانْتِهَاءَ إِلَى النُّقْصَانِ، وَهَاهُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِابْتِدَاءَ مِنَ النُّقْصَانِ وَالِانْتِهَاءَ إِلَى الْكَمَالِ، فَكَيْفَ وَجْهُ الْجَمْعِ؟

قُلْنَا: الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ التِّينِ أَحْوَالُ الْبَدَنِ، وَهَاهُنَا أَحْوَالُ النَّفْسِ؛ فَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ.

❁❁❁❁❁❁

وَقَدْ جَاءَ (**الْخُسْرَانُ**) فِي هَذِهِ الآيَةِ مُجْمَلًا، وَقَدْ بَيَّنَتْهُ آيَاتٌ أُخَرُ فِي كِتَابِ اللهِ.

أَمَّا الْخُسْرَانُ **بِالْكُفْرِ**؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ (الزُّمر/ ٦٥).

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ **بِتَرْكِ الْعَمَلِ**؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ (المُؤْمِنُون/ ١٠٣).

وَأَمَّا التَّوَاصِي **بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ** فَلَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَالْحَقُّ هُوَ الإِسْلَامُ بِكَامِلِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عِمْرَان/ ٨٥).

وَأَمَّا الْخُسْرَانُ **بِتَرْكِ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ** وَالْوُقُوعِ فِي الْهَلَعِ وَالْفَزَعِ؛ فَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ (الحَجّ/ ١١).

❁❁❁❁❁❁

وَإِذَا نَظَرْنَا الْيَوْمَ مِنْ خِلَالِ مَا رَسَمَهُ الْقُرْآنُ لِحَيَاةِ الْفِئَةِ الرَّابِحَةِ النَّاجِيَةِ مِنَ الْخُسْرَانِ، فَيَهُولُنَا أَنْ نَرَى (**الْخُسْرَ**) يَحِلُّ **بِالْبَشَرِيَّةِ** فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ. نَرَى

هَذَا الضَّيَاعَ الَّذِي تُعَانِيهِ البَشَرِيَّةُ فِي الدُّنْيَا-قَبْلَ الآخِرَةِ، نَرَىٰ إِعْرَاضَ البَشَرِيَّةِ ذَلِكَ الإِعْرَاضَ البَائِسَ عَنِ الخَيْرِ الَّذِي أَفَاضَهُ ُ عَلَيْهَا مَعَ فُقْدَانِ السُّلْطَةِ الخَيِّرَةِ المُؤْمِنَةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ الحَقِّ فِي هَذِهِ الأَرْضِ..

فَكَيْفَ نُعْرِضُ -بَعْدَ هَذَا- عَنْ هَذَا الخَيْرِ ... عَنِ المَنْهَجِ الإِلَهِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ ُ لَنَا ... عَنِ الدُّسْتُورِ الَّذِي شَرَعَهُ لأُمَّتِنَا ... عَنِ الطَّرِيقِ الوَحِيدِ الَّذِي رَسَمَهُ لِلنَّجَاةِ مِنَ الخُسْرَانِ وَالضَّيَاعِ؟

كَيْفَ نَتْرُكُ هَذَا المَنْهَجَ وَهَذِهِ الرَّايَةَ -رَايَةَ الإِيمَانِ- الَّتِي انْتَصَرَ العَرَبُ تَحْتَهَا وَسَادُوا وَقَادُوا البَشَرِيَّةَ قِيَادَةً خَيِّرَةً قَوِيَّةً وَاعِيَةً نَاجِيَةً لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِهِمْ وَفِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ الطَّوِيلِ، وَنَتَعَلَّ ُ بِرَايَاتٍ عُنْصُرِيَّةٍ أَوْ مُسْتَوْرَدَةٍ لَمْ تَنَلْ تَحْتَهَا خَيْرًا قَطّ فِي تَارِيخِنَا كُلِّهِ وَلَمْ يَنَلْ أَهْلُهَا مِنْ وَرَائِهَا خَيْرًا؟

فَأَيْنَ مِنْ ذَلِكَ هَذَا الضَّيَاعُ الَّذِي تُعَانِيهِ البَشَرِيَّةُ اليَوْمَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَالخَسَارُ الَّذِي تَبُوءُ بِهِ فِي مَعْرَكَةِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالعَمَاءُ عَنْ ذَلِكَ الخَيْرِ الكَبِيرِ الَّذِي حَمَلَتْهُ الأُمَّةُ العَرَبِيَّةُ لِلْبَشَرِ يَوْمَ حَمَلَتْ رَايَةَ الإِسْلَامِ؛ فَكَانَتْ لَهَا القِيَادَةُ؟

فَلَمَّا تَرَكَتْ هَذِهِ الرَّايَةَ؛ فَإِذَا هِيَ فِي ذَيْلِ القَافِلَةِ، وَإِذَا القَافِلَةُ كُلُّهَا تَخْطُو إِلَىٰ الضَّيَاعِ وَالخَسَارِ. وَإِذَا الرَّايَاتُ كُلُّهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِلشَّيْطَانِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لله. وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلْبَاطِلِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْحَقِّ. وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلْعَمَاءِ وَالضَّلَالِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْهُدَىٰ وَالنُّورِ، وَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلْخَسَارِ لَيْسَ فِيهَا رَايَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْفَلَاحِ! وَرَايَةُ الله مَا تَزَالُ، وَإِنَّهَا لَتَرْتَقِبُ اليَدَ الَّتِي تَرْفَعُهَا، وَالأُمَّةَ الَّتِي تَسِيرُ تَحْتَهَا إِلَىٰ الخَيْرِ وَالهُدَىٰ وَالصَّلَاحِ وَالفَلَاحِ.

ذَلِكَ شَأْنُ الرِّبْحِ وَالخُسْرِ فِي هَذِهِ الأَرْضِ .. الرِّبْحُ الحَقُّ وَالخُسْرُ الحَقُّ .. وَهُوَ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ إِذَا قِيسَ بِشَأْنِ الآخِرَةِ صَغِيرٌ. وَهُنَاكَ .. هُنَاكَ.

هُنَاكَ؛ رِبْحُ الجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ، أَوْ خُسْرُ الجَنَّةِ وَالرِّضْوَانِ .. هُنَاكَ حَيْثُ يَبْلُغُ الإِنْسَانُ أَقْصَىٰ الكَمَالِ المُقَدَّرِ لَهُ، أَوْ يَرْتَكِسُ فَتُهْدَرُ آدَمِيَّتُهُ، وَيَنْتَهِي إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ حَجَرًا فِي القِيمَةِ وَدُونَ الحَجَرِ فِي الرَّاحَةِ: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ (النَّبَأ/٤٠) ..

وَهَذِهِ السُّورَةُ حَاسِمَةٌ فِي تَحْدِيدِ الطَّرِيقِ.. إِنَّهُ (الخُسْرُ).. ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.. طَرِيقٌ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ؛ طَرِيقُ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ وَقِيَامِ الجَمَاعَةِ المُسْلِمَةِ الَّتِي تَتَوَاصَىٰ بِالحَقِّ وَتَتَوَاصَىٰ بِالصَّبْرِ، وَتَقُومُ مُتَضَامِنَةً عَلَىٰ حِرَاسَةِ الحَقِّ [بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ] مُزَوَّدَةً بِزَادِ الصَّبْرِ.

إِنَّهُ طَرِيقٌ وَاحِدٌ؛ لَابُدَّ فِيهِ مِنَ التَّعَاهُدِ عَلَىٰ وُجُودِ دُسْتُورٍ حَارِسٍ لِلْفَرْدِ وَلِلأُمَّةِ..